الفصل الرابع

تهيئة أسباب الحياة للإنسان

الباحث في الدين الإسلامي والمتعمق فيه، بعد أن يعرف سبب خلق الإنسان، وطبيعة خلقه التي كانت مزاجًا من توأمين، الأول اللطيفة الإلهية الروحية؛ وهذه وظيفتها النزوع إلى الله عز وجل والعبادة له. والثاني طبيعة أرضية عملها جذب الإنسان إلى الأرض وحب الخلود فيها، وقد بينا في الفصول السابقة أن الإنسان خلق لعمارة الأرض.

يجد الإسلام قد خرج بالإنسان من القيود والأغلال التي طوقت جيده زمنًا طويلاً، آخره عهد الكنيسة التي أبقت السلطة في يدها. ولقد كانت سلطتها مقدسة تملك رقاب الناس في الدنيا وفي الآخرة، حيث ظلت تبيع صكوك الغفران وتصدر قرارات الحرمان، حتى جرها ذلك إلى مقاومة ومناهضة الأفكار الحرة، التي تتعارض مع نظريات الرق والاستعباد الديني، مما نتج عنه وجود طوائف من العلماء والمفكرين تحتقر الكنيسة ولا تعترف برجال الدين. وكان عمل هذه الطوائف مناهضة الكنيسة ورجالها مما جعلهم في مهب الريح كريشة لا تملك لنفسها أمرًا ولا تستطيع أن يكون لها مستقر.

ولما جاء الإسلام بقواعده الثابتة أظهر وظيفة الإنسان، وجعلها واضحة المعالم في شعائره ونظمه التي وقفت بين الروح، والمادة، والعبادة، والعمل؛ فلا عزلة للجانب التعبدي عن الجانب الدنيوي لذلك الإنسان، بل وضعت العبادة والعمل في كفة واحدة من الميزان، حيث جعل الإسلام العبادة عملاً والعمل عبادة. وخير دليل على ذلك أمر الله في القرآن الكريم في سورة الجمعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) سورة الجمعة الآيتان ٩، ١٠.

إذًا لم يخلق الإنسان عبثًا، ولم يخلقه الله ليكون من الساجدين المسبحين فقط، أو يكون من العاكفين في ركن من أركان المسجد، أو مترهبًا في دير، أو سجينًا في صومعة. فقد كان الله في غنى من عبادة ذلك الإنسان المتكاسل، لأن الملائكة وكل شيء خلقه الله يسبحه ويذكره، فكانت للملائكة وظيفة واحدة وهي العبادة فقط، ولكن الإنسان كانت له وظيفة أخرى بجانب وظيفة العبادة وهي العمل على عمارة الأرض؛ لكي تظهر نعمة الله ظاهرة وباطنة. وقد جاء في سورة الكهف في آية ٨٤ قول الله تبارك وتعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا).

بل خلق الإنسان ليسبح ويعمر، ويسجد ويشيد، ويركع ويزرع، ويصوم ويروي، ويحج ويتاجر، ويستمتع بحياته الدنيا استرواحًا منه واستمتاعًا بنسمات الآخرة.

ولم يهبط الإنسان من الجنة إلى الأرض ليكون متكلاً عليها يعيش كالسائمة دون أن يفلح تلك الأرض فيخرج من بطونها آلاء الله ونعمه. ولو تتبعنا ما جاء في سورة الحج لعرفنا كيف خلق الله الإنسان: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) سورة الحج آية ٥.

إذن هبوط الإنسان إلى الأرض بعد غفران الله له كان بعد غواية الشيطان، وبذلك عرف الإنسان أنه عدو لدود عليه أن يصارعه حتى يصرعه، فنشأت عنده شهوة الصراع، والصراع يحتاج إلى القوة، والعمل من أسباب القوة. وقد أيد ذلك قول الله عز شأنه في سورة الحج آية ٤٠: (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).

والإسلام بعد كل عمل يعد ذلك العمل سواء كان لصالح الفرد أو الجماعة من شعائر الدين، فقد ورد عن رسول الله ﷺ حديثًا رواه الشيخان والترمذي والنسائي: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار).

ولو تتبعت حياة النبي ﷺ مع أصحابه، ودرست سنته التي خلفها من بعده، لرأيت رسول الله ﷺ يتبع العلم العمل، أو يجعل من العمل علمًا. فقد أخرج الستة الرواة للحديث عن أنس رضى الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، فمنا الصائم ومنا المفطر. قال: فنزلنا في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقطوا الركاب، فقال الرسول ﷺ: (ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله).

وإنى دائمًا لأتخذ من حادثة لثلاثة جاءوا رسول الله ﷺ نبراساً في حياتي، وقانونًا من القوانين التي عجز المقننون على اختلاف نزعاتهم وفي مختلف العصور والأزمان من أن يبلغوا ما بلغته كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكمة وبلاغة وإصابة مرمى.

فقد روى الشيخان والنسائي عن أنس ﷺ أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها. قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا اصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا اعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، وأما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له، ولكني أصوم، وأفطر، وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، من رغب عن سنتي فليس مني).

ومن هذه التعاليم وبهذه الروح كان الإنسان في الإسلام مطالباً بالعمل المبنى على التفكير والتأمل، فلم يعتمد على خوارق الأمور وبواطن الغيبيات. فقد ورد في القرآن الكريم ما ضرب الله من أمثلة تدعو الإنسان للتبحر والتعلم بانيًا ذلك على التفكر والتأمل. قال الله تعالى:

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَيْلِ والنَّهَارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ومَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة البقرة آية ١٦٤.

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) سورة آل عمران آية ١٩٠، ١٩١.

(ولَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ومَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وإن مِّن شَيْءٍ إلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ومَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) سورة الحجر الآيات ١٦-٢٢.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْهَارًا ومِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة الرعد، الآيتان ٣، ٤. (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) سورة النحل آية ٧٩.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ويُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ ويَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ) سورة النور، آية ٤٣.

وبعد دور التفكير والتأمل يخرج الإنسان من دائرة التهيئة والتصميم والرسم إلى دور التنفيذ، وذلك ناشئ عن قول الله عز وجل في سورة الأعراف آية ١٠.

(ولَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)، ثم يستمر الإنسان في عمله لا يتخلى عن إيمانه، ينفذ مشيئة الله في البحث عن قوْتِه الذي ضمنه الله له في قوله تبارك وتعالى: (امْشُوا فِي

مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ). وضمان آخر: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)، مع شرط العمل والبحث إيمانًا من الإنسان أن الله مربي غذاءه، فهو يفلح الأرض والله (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً).

ثم يبدأ الإنسان في تقليب أرضه وحرثها وبذر البذور فيها، ثم يأتي دور الري والإنبات في سورة البقرة آية ٢٢: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ). وقدرة الله تبارك وتعالى تتجلى فيما أورده في كتابه الكريم الذي لم يفرط فيه من شيء، ولنضرب أمثله من قول الرحمن:

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّ تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ومِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) سورة الأنعام الآيات من ٩٤–٩٩.

(وهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) سورة الأنعام آية ١٤١.

(وهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) سورة الأعراف الآيتان ٥٧–٥٨.

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) سورة الرعد آية ١٧.

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ومَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) سورة النحل آية ١٣.

(وأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ

ومِنْهَا تَأْكُلُونَ وشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ) سورة المؤمنون آية ٢٠.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) سورة النمل آية ٦٠.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) سورة يس آية ٨٠.

وعمل الإنسان بالزراعة يحتم عليه أن يعمل على إيجاد مسكن له يقيه الحر والبرد ويتخذه مخزنًا، لحصاده فألهمه الله فن البناء والعمارة.

(واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ومِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ومَتَاعًا إِلَى حِينٍ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا) سورة النحل آية ٨٠.

(واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وحْدَهُ ونَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

مِّنَّا وقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ومَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) سورة الأعراف آية ٧٤.

(لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ومَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ولِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وزُخْرُفًا وإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) سورة الزخرف آية ٣٥.

ثم احتاج الإنسان عند اكتشافه الزراعة إلى تنظيمها، وترتيب مواسم الزراعة والحصاد؛ فعلمه الله عدد السنين والحساب لكي يتمكن من ضبط أوقاته سواء في العمل أو العبادة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ) سورة البقرة آية ١٨٩

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ومَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) سورة يونس الآيتان ٥، ٦.

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) سورة التوبة آية ٢٦.

(وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) سورة الإسراء آية ١٢.

ومن رحمة الله على عباده ولطفه بهم نظم لهم العمل والراحة، فقال: (فَالِقُ الإصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا) سورة الأنعام آية ٩٦.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) سورة يونس آية ٦٧.

(وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا والنَّوْمَ سُبَاتًا وجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) سورة الفرقان آية ٤٧.

(وجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) سورة النبأ الآيات ٩-١١.

والزراعة والحصاد يحتاجان إلى الآلات الزراعية، مما أوجب على الإنسان أمام إلحاح الحاجة إلى التفنن والاختراع وصنع آلاته؛ كالفأس والمحراث وغيرها. ثم تطورت صناعاته، فكان في احتياج إلى ما يجر المحراث وينقل محاصيله، فاستأنس بعض الحيوانات التي سخرها الله لخدمته.

وهنا يتجلى تكريم الخالق للمخلوق واضحًا في آياته وآلائه سبحانه وتعالى الذي فصل كل شيء فأحسن تفصيله؛ حيث جعل في الأنعام منافع كثيرة وفوائد جمة للإنسان، وذلك ظاهر في أدق القول قول الله عز وجل الذي أبان لنا قدرة الله التي أخرجت لنا لبنًا سائغًا من بين فرث ودم، وشهدًا فيه شفاء للناس من بطن حشرة صغيرة، وجعل لنا مما أفاء علينا من الفواكه سكرًا ورزقًا حسنًا وإليك بيان العزيز الحكيم...

(والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) سورة النحل الآيات ٥-٨.

(وإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ومِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ورِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) سورة النحل الآيات ٦٦-٦٩.

ثم قامت الصناعات التي تناسب تطورات الزمن واحتياجات الإنسان، فاتجه الإنسان إلى الصناعات الجلدية والصناعات الناشئة على

عظام الأنعام. كما قامت صناعات الغزل، والنسيج، والملابس، والخيام على مخلفات تلك الأنعام.

(وجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقَامَتِكُمْ ومِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ومَتَاعًا إلَى حِينٍ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) سورة النحل الآيتان ٨٠، ٨١.

ولم تكن الصناعات التي قامت على الزراعة ومخلفات الحيوان تتفق وتطور المدنية الإنسانية؛ فاكتشف الإنسان الحديد في باطن الأرض، كما اكتشف غيره من المعادن، ومن هنا تعلم الصناعات المعدنية وأدخلها في حياته، ثم تطورت الصناعات المعدنية فتحسنت فكانت أداة الإنسان في سلمه وحربه.

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) سورة الكهف ٩٥-٩٦.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ

وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) سورة سبأ آية ١٠-١٢.

وبالاستمرار في الآية السابقة نجد فضل الله على الإنسان حيث علمه مما يشاء ما لم يكن يعلم:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) سورة سبأ آية ١٣.

وعلى الصناعات الحديدية وبواسطة ما اكتشفه الإنسان من معادن أخرى، ووجود التبرول في باطن الأرض اخترع الإنسان السيارات، والدبابات، والمصفحات، والأسلحة، وذلك ظاهر في قول الله عز وجل:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) سورة العاديات من ١-٥.

ثم وجه الله الإنسان إلى تسخير البحار والأنهار، وجعل له فيها منافع جمة يستخرج منها لحمًا طريًا، ولؤلؤًا، ومرجانًا، وأحجارًا كريمة يتخذها زينة ومتاعًا. يرتوي من عذب النهر ويستخرج من البحر الملح، ويسخر صفة كل منهما لفلكه وسفنه التي تحمل تجارته وتكون وسائل النقل والتنقل والسفر؛ مما ساعد على تقدم الإنسان على مر الزمن، وأن المواخر التي تمخر عباب البحار والأنهار والتي قربت البعيد من البلدان ووصلت

القارات ببعضها والأقطار لخير دليل على فضل الله على عباده، وإنا لنسوق الآيات على سبيل المثال اعترافًا بفضل الله عز وجل:

(وأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ) سورة الأنعام آية ٦. (وهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة النحل آية ١٤.

(وهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وحِجْرًا مَّحْجُورًا) سورة الفرقان آية ٥٣.

(أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) سورة النمل آية ٦١.

(ومَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ومِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة فاطر آية ١٢.

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة الجاثية آية ١٢.

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاتِ وقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) سورة الذاريات الآيات من ١–٤.

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ) سورة المائدة آية ٩٦.

والأرض وما حوت من جبال وجنات معروشات ومعادن في بطنها، والبحار بما فيها من لآلئ وثمين الأحجار، وما عليها من مواخر وبواخر وفلك تجرى بأمر الله، والأنهار وما تحوى من ماء عذب فرات، ولحمًا طريًا، وما يجري على صفحاتها من ذوات الشراع والأنعام والدواب. كل ذلك أصبح ضئيلاً أمام مطامع الإنسان واحتياجاته ومدنيته، فاتجه إلى السماء يكشف مكنوناتها، ويكتشف أسراها، ويستطلع أخبارها، فسخرها لمطالبة، ولم يكن ذلك إلا بوحي من الله العلي الكبير.

وباكتشاف الإنسان أسرار السماء، وإطلاعه على ما لم يعلم من قبل صنع الطائرة والمنطاد التي اكتشفت بقاعًا في الأرض، لم يكن قد وصل إليها من قبل ووفرت الزمن فقربت البعيد ووصلت بين الأمم. ثم اكتشف القوة الطاردة والقوة الجاذبة فأدخلها في علومه، ومنها عرف السالب والموجب، ثم توصل إلى الذرة ودرس الهواء والأجواء، وجاب الفضاء. وما زال ولا يزال يكتشف ويخترع ويجدد، وفي كل يوم تظهر له آفاق جديدة من العلوم والمعارف، حتى سخر موجات الأثير فاخترع الاتصال السلكي واللاسلكي.

ولو تحققنا، ودققنا، ومحصنا النظر وسرحنا بالفكر لوجدنا أن ذلك كله بفضل ما أوحى الله لأنبيائه، وما صنع الله من معجزات على أيدي هؤلاء الأنبياء، وكل ذلك كان تعليمًا للإنسان وتوجيهًا.

فلو نظرنا مثلاً إلى سورة الجن لوجدنا من آيات الله عجبًا، فقد أوحت تلك الآيات المبينات إلى الإنسان بصورة رائعة من الاتصال الهوائي (اللاسلكي)، وقد ضرب الله مثلاً فكان أصدق مثلاً. فقد جاء على لسان الجن عندما أوحي إلى النبي ﷺ: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا وشهبًا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا). وفي سورة الحجر جاء قوله تعالى: (إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ).

وما وحي السماء إلى الأرض إلا قدرة للرحمن عز وجل جعلها لعباده مليئة بالدروس التي توجههم إلى التفكر والتطلع اللذين تعقبهما النتيجة، وما النتيجة إلا عمل، وما نزول جبريل إلى الأرض بالوحي على النبي إلا درس السماء إلى الأرض: (وإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) سورة النمل آية ٦.

وإسراء النبي مُحَمَّد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى آية من الله، توجه الإنسان إلى أن يبحث عن السرعة. ولعل الدرس الوحيد في حادثة الإسراء هو الدليل على أن هناك في علم الله سرعة تفوق النفاثة، بل سرعة الصوت.

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى) سورة الإسراء آية ١.

وعروج النبي ﷺ إلى السماء وكونه قاب قوسين أو أدنى، ودنوه وتدليه ليعجز المخترعين عن الوصول إلى المكان الذي وصلى صلوات الله عليه إليه (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) سورة النجم الآيات من ١-١٨.

وقصة الإسراء والمعراج تتضمن حسبما روت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يبيت عندها ليلتئذ: أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ونزل وصلى بالأنبياء ورجع إلى مكانه ولا يزال مكانه دافئًا.

فأين (جاجارين، وتوتوف) الروسيان، وألن شبرد وجفن الأمريكيان الذين جابوا الفضاء من النبي ﷺ، ومن حادثة الإسراء والمعراج؟ وأين سفن الفضاء التي أنفقت كل ما عند الإنسان من فن واختراع من البراق والمعراج؟ فإن من سفه القول أن يقول الإنسان الحديث أنه قد فاق في اختراعه قدرة الله، وأن تلك الحوادث والمعجزات لهي دليل قاطع وبرهان ساطع يقومان على تحطيم قول الملحدين وتسفيه آرائهم ومعتقداتهم.

ولن ينحني مخترعو سفن الفضاء أمام البراق والمعراج فحسب، بل يجب عليهم أن يحنوا الرؤوس أمام قصة سليمان عليه السلام، والهدهد، وعفريت الجن وملكة سبأ، لأننا رأينا أن تلك المخترعات عجزت أن تصل بسرعة طيرانها إلى السرعة التي أحضرت بها ملكة سبأ بين يدي سليمان عليه السلام. ونترك القرآن الكريم يقص علينا القصص في قول الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وكِتَابٍ مُّبِينٍ هُدًى وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ وهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ومَنْ حَوْلَهَا وسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ يَا مُوسَى إنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ وأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولَّى مُدْبِرًا ولَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ إلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلَى فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ولَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْمًا وقَالا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ووَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ

جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وجَدتُّهَا وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ ومَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ولَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ). سورة النمل الآيات من ١ – ٤٠.

إن القصص القرآني قد صور في بلاغة ما كان بين سليمان والهدد، وسرعة وصول الخطاب وسرعة الرجوع بالهدية. وأعجز ما قص علينا القرآن المنافسة بين السرعة التي حددها عفريت الجن الذي أخذ على نفسه إحضار عرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، والسرعة التي حددها الذي عنده علم من الكتاب الذي جاء بالعرش بين يدي سليمان قبل أن يرتد طرفه. وأن ذلك ليلجم الذين قالوا إنا ردنا الفضاء فكنا أسرع، وجبنا السماء فكنا أرفع، وأن إعجاز تلك القصة لهم لأوقع، فمن ينكر قدرة الله فليعلم أنه عنده من الجن والأنس ما هو قائم بأمره ولأمره، والله غني عن العالمين.

ولم يكن اتجاه الإنسان إلى السماء عفوًا أو بطريق الصدفة، إنما كان ذلك توجيهًا من الله الذي سخر السماوات والأرض للإنسان، والذي عرف ذلك الإنسان بالسماء في محكم آياته وهو العليم الحكيم الذي أمر عباده بالتفكر والتدبر في السموات والأرض؛ ذلك أنه ذكر السماوات قبل الأرض في أكثر الآيات، وذلك لقوله:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ). سورة آل عمران ١٩٠.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ) سورة الأنعام آية ١.

(فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ) سورة الأنعام آية ٣٥.

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ويُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ). سورة الزمر آية ٥.

(والسَّمَاءَ رَفَعَهَا ووَضَعَ المِيزَانَ) سورة الرحمن آية ٧.

(بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ). سورة الحجر الآيتان ١٦، ١٧.

(أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) سورة الأنبياء آية ٣٠.

واتجاه الإنسان إلى السماء جره إلى دراسة بروجها وما زينها به الله من شمس وقمر، فربط حياته بالأفلاك، والكواكب، والنجوم، والشمس، والقمر، وهن اللائي جعلهن الله للإنسان مسخرات. فقد عرف أن الشمس التي تمده بالنور نهارًا والدفء والحرارة، كما تمده بالفيتامينات

والأشعة اللازمة لحياته، كذلك تمد زرعه وضرعه بالفيتامينات والكلوروفيل الذي يعد عاملاً من عوامل إنماء زرعه؛ حيث يكون هناك التمثيل الضوئي (الكلوروفيلي). وكذلك عرف الإنسان النجوم التي اهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومنها تعلم اختراع البوصلة البرية، والبحرية. ومن اختراع البوصلة والنجوم درس التقلبات الجوية، فتعلم فن الأرصاد. ثم حاول وفكر في الصعود إلى القمر وتسخيره لأمره، كما سخر الأرض، وأن صناعة الأقمار الصناعية واختراع الصواريخ لكفيل أن يرينا كيف يفكر الإنسان في اختراق السماء والخوض في غمارها، وأمله في الوصول إلى المريخ لكي يكتشف ويستطلع ما خفي عليه. والله الذي وهب الإنسان العقل المفكر واللطيفة المدبرة بفضل نعمه.

(والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة الأنعام آية ٩٧.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ) سورة يونس آية ٥.

(وعَلامَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) سورة النحل آية ١٦.

(وجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) سورة الأنبياء الآيات ٣٢، ٣٣.

(وبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وجَعَلْنَا سِرَاجًا وهَّاجًا) سورة النبأ الآيات ١٢، ١٣.

وإن كنا قد تحدقنا عن السموات والأرض فلا يفوتنا التحدث عما بينهما، ولنأخذ الهواء مثلاً؛ فإن الهواء الجوي بما يحوى من أكسجين وهو ضرورة لازمة لحياة الإنسان والحيوان والنبات، وبما يضم من ثاني أكسيد الكربون الذي يعد ركنًا أساسيًا في تكوين المواد النشوية في النبات وعاملاً هامًا في الحد من حرارة الجو، كل ذلك وما حوى الهواء من غازات أخرى؛ كالنيتروجين، والأزوت، وغيرها تهيئة لأسباب حياة الإنسان في الأرض.

وأن استخلاص الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وغيرهما من الغازات كان عاملاً من عوامل فتح الميادين الصناعية؛ فأقيمت المصانع، وأنشئت المؤسسات، واشتغلت الأيدي العاملة، مما أوصل الإنسان إلى مراتب التقدم والحضارة.

ومن السماوات والأرض وما بينهما تعلم الإنسان العلوم الكثيرة: كعلم الفلك، والجغرافيا، والجيولوجيا. ومن عدد السنين والحساب أرخ وسجل، ومن بحر النعم الإلهية تفنن، واخترع، وأقام، وصنع، فسبحان الرحمن الذي علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان.

ولمحة لابد منها إحقاقًا للحق، أن ذلك الإنسان في كثير من الأحيان لم يتخذ هذه النعم أداة لخير الإنسانية، بل اتخذها أداة للشر والحروب والدمار؛ فهذه القنبلة الذرية والأسلحة النووية كان يمكن توجيه طاقتها

للسلام ومنفعة الإنسانية، ولكن الإنسان اتخذ مما علمه الله طريقًا لإيذاء بني جلدته، وفناه لأصله، وتخريبًا لما شيدت يداه، فكان كالجمل ذي الخف الذي إذا جر المحراث لحرث الأرض يبطط ما حرثه.

لم يكتف الإنسان بمحاربة بني جلدته فحسب، بل حارب ربه واتخذ من آلاء الله سلاحًا لحربه، فلم يخش الله وران على قلبه فكفر وألحد وأنكر وجود الله ونسى قدرة الله ونسبها إلى الطبيعة، ونسى أن يسأل نفسه: من خالق هذه الطبيعة؟ فكان قلبه أغلظ من الحجارة، وكانت الحجارة أعرف منه بربها.

(وإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ومَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) سورة البقرة آية ٧٤.

نسى الإنسان عبادة ربه وعبد شهوته، وركع لنزواته وسار خلف عدوه الشيطان اللدود واستذل له حتى أذل عنق، فارتكب ما حرم عليه وترك ما أحل له حتى أصبح لا هم له إلا إشباع رغباته الجسدية وطبيعته الترابية، ونسى ما زود به من لطيفه ربانية وطبيعة روحانية فزين له سوء عمله.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ والْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ) سورة آل عمران آية ١٤.

ولو علم الإنسان أن الله سبحانه وتعالى أحل له الطيبات من الرزق، ولم يحرم عليه الانتفاع بالنعم والتمتع بالآلاء، بل سخر كل ذلك لأمره تفضلاً منه سبحانه وتعالى، ولكن ذلك في حدود ما أحل الله، وما ينفع الإنسان ما سار وراء شهواته وما عبد نزواته.

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة الأعراف آية ٣٢.

وإن الله يحب أن يرى نعمه على عبده ظاهرة وباطنة، ودليلنا على ذلك أنه سخر كل شيء لخدمة الإنسان ولرفاهيته، ولكن هذا الإنسان كفر بأنعم الله فكان لربه خصيمًا، ونسى أن من خلقه وهيأ له أسباب الحياة خلقه لحكمة وأكرمه، حتى أمر الملائكة أن تسجد له، وكان بسببه أن طرد إبليس وذلك زيادة في التكريم ولكن... (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً).

وإن ما أجملنا في هذا الفصل، قد عزمنا بمشيئة الله العودة إليه تفصيلاً في كتاب جديد يحوى بحوثًا مستفيضة فيما وصل إليه الإنسان من رقي، وحضارة، وتقدم. وإشارات القرآن إلى هذا التقدم والرقي قبل أن يحدثا أو يعرفهما الإنسان، وأدعو الله التوفيق كما أدعوه (رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا).